ثالثًا: الخليفة علي بن أبي طالب في مواجهة الانقسامات:

لقد وصف الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ هذه الانقسامات الحادة التي أصابت الأمة بأنها "فتنة كالنار، كلما سعرت ازدادت واستنارت"[1] ومن ثم فإن أفضل علاج لها السياسة ومحاولة تهدئة الخواطر وتسكينها، فإن لم تجد كل هذه الوسائل فإن "آخر الدواء الكي"[2]، أي استخدام القوة والسيف.

في ضوء ما تقدم فقد شرع الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ بكتابة الرسائل وإرسال الرسل، فكتب إلى أبي موسى الأشعري في الكوفة، فأجابه أبو موسى "بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبين الكاره منهم للذي كان، والراضي بالذي قد كان، ومن بين ذلك، حتى كأن عليا على المواجهة من أمر الكوفة"[3].

وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام، وأرسل معها مبعوثًا إليه، هو سبرة الجهني "فقدم عليه، فلم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه، ورد رسوله"[4].

وفي شهر صفر، بعد دخول الشهر الثالث على مقتل عثمان بن عفان ﷺ، قام معاوية بإرسال مبعوث عنه إلى الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ برسالة شفهية طلب منه أن ينقلها إليه بطريقة استعراضية مثيرة تستهدف تعريف أهل المدينة بموقف معاوية وأهل الشام من مسألة مقتل عثمان ﷺ. روى الطبري إن مبعوث معاوية حينما دخل على الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ سأله "ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال: نعم، إن الرسل آمنة لا تقتل، قال: ورائي أني تركت قوما لا يرضون إلاّ بالقود – أي بالقصاص –، قال: ممن؟ قال: من خيط نفسك – أي رقبتك –، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق. فقال: مني يطلبون دم عثمان! اللهم إني ابرأ اليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان إلاّ أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمراً أصابه"[5] ثم أمره بالخروج، فخرج إلى الشام.

لقد توصل الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ، إلى أن معاوية لم يترك له وسيلة للتفاهم وحل الخلاف، فهو قد خرج منذ البداية عن طاعته ومنع من عينه واليا على الشام بدلا عنه من دخولها لمباشرة عمله. ثم رفض الإجابة عن رسالته والدخول في

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص 443.
(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 443.
(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 443.
(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 443.
(5) المصدر نفسه، ج 4، ص 444.

حوار مع المبعوث الذي أرسله إليه، وها هو الآن يأخذ زمام المبادرة فيتهمه شخصياً وبصورة علنية بأنه مسؤول عن قتل عثمان ﷺ ويزعم أن أهل الشام يطلبون الاقتصاص منه ومعاقبته. لذا فقد توصل الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ أنه لا بدّ من تجهيز جيش والخروج باتجاه بلاد الشام لمقاتلة معاوية بن أبي سفيان وحمله على الطاعة[1].

غير أن حماسة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ للبدء بمقاتلة معاوية ومن أطاعه من أهل الشام، لم تقابل بالارتياح والحماسة من معظم الصحابة وأغلبية أهل المدينة. فقد ذكر أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام استأذنا الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ للذهاب إلى مكة لأداء العمرة فأذن لهما[2]، وكان ذلك بعد مقتل عثمان ﷺ بأربعة أشهر[3]. كما روى أن ابنه الحسن دخل عليه "ودعاه إلى القعود وترك الناس"[4]. وحاول أهل المدينة التعرّف على حقيقة موقف الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ "في معاوية وانتقاضه، ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة، أيجسر عليه أو ينكل عنه"[5]. "فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي، وكان منقطعًا إلى علي – فدخل عليه فجلس إليه ساعة، ثم قال له علي: يا زياد، تيسر فقال: لأي شيء؟ فقال: تغزو الشام، فقال زياد: الأناة والرفق أمثل"[6].

لم تستطع مثل هذه الطلبات أن تثني الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ عن قراره بالخروج إلى الشام، ربما لأنه كان يعتقد ألاّ جدوى من الهدوء والصبر وخصمه يعمل ويتحرك. لذا فقد أخذ يحشد جيشاً ممن تبعه للخروج ويبدو أن إقبال أهل المدينة على الالتحاق بهذا الجيش كان ضعيفًا. لذا فقد خطب في "أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة"[7]، وحذرهم من أن تخليهم عن نصرته قد يؤدي إلى أن تفقد المدينة مركزها بصفتها عاصمة الدولة الإسلامية. فكان مما قاله لهم في هذا المجال: "وإن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم ابدًا حتى يأزر الأمر إليها، انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم، لعل الله يصلح

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص 445.
(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 444.
(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 452.
(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 445.
(5) المصدر نفسه، ج 4، ص 445.
(6) المصدر نفسه، ج 4، ص 445.
(7) المصدر نفسه، ج 4، ص 445.

بكم ما أفسد أهل الآفاق، وتقضون الذي عليكم"[1].

وقبل أن تتضح مواقف أهل المدينة من دعوة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ للخروج معه إلى الشام لإعادة الوحدة إلى الأمة، وإصلاح ما أفسد أهل الآفاق جاءته الأخبار من مكة عن اتفاق عائشة أم المؤمنين، وطلحة والزبير، وعبد الله بن عامر، والي عثمان ﷺ على مكة، ويعلى بن أمية، عامله علي اليمن، ومن تبعهم من بني أمية وغيرهم، إلى الخروج للدعوة إلى معاقبة قتلة عثمان ﷺ[2].

وقد حملت هذه الأخبار الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ على تأجيل الخروج إلى الشام، والتفرغ لمعالجة الموقف الجديد، وذلك لأن قادة هذا التحرك كانوا يتمتعون بمكانة كبيرة في نفوس المسلمين، ومن ثم فإن مخاطر معارضتهم قد تفوق بكثير المخاطر الناجمة عن معارضة معاوية بن أبي سفيان.

غير أن مما يجدر ذكره في هذا المجال أن السيدة عائشة ﷺ وطلحة والزبير لم يتهموا الخليفة عليا ﷺ بقتل عثمان ﷺ أو تحمل مسؤولية قتله، كما فعل معاوية بن أبي سفيان، وإنما أكدوا على لسان أم المؤمنين عائشة "أن عثمان قتل مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام"[3].

يبدو مما تقدم أن السيدة عائشة ﷺ وطلحة والزبير كانوا يرون أن الغوغاء من الخارجين على الخليفة عثمان بن عفان ﷺ هم المسؤولون عن قتله، وأن علي بن أبي طالب ﷺ لم يكن في وضع يمكنه من السعي لتحديد قتلة عثمان ومعاقبتهم بحكم سيطرة هؤلاء الغوغاء على المدينة. لذا فإن خروجهم للمطالبة بدم عثمان ﷺ كان يعني في نظرهم "دعوة الناس إلى الإصلاح"[4] والعمل على عزة الإسلام.

وقد أورد الطبري رواية تشير إلى أنه لم يكن ثمة ترابط بين الخروج للدعوة للمطالبة بمقاتلة قتلة عثمان ﷺ وبين الخروج على خلافة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ في أذهان كل من عائشة ﷺ وطلحة والزبير. فحين بعث عثمان بن حنيف، عامل الخليفة علي ﷺ على البصرة ممثلين عنه إليهم لسؤالهم عن سبب مسيرهم إلى البصرة أخبرتهما عائشة ﷺ أنها جاءت لدعوة المسلمين إلى إصلاح ما أحدثه الخارجون على عثمان من فساد ومعاقبة قتلة عثمان. أما طلحة فقال: إنه قد جاء

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص 445 – 446.
(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 446 – 448 – 450.
(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 449.
(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 461 – 462.